حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

أحداث

وفي اليوم الثاني عشر من شهر يوليه سنة ١٩٢٤ كان الزعيم « سعد زغلول » يتهيأ لسفر الى انجلترا ليتفاوض مع حكومتها ، وكان وقتذاك رئيساً للحكومة ، فتقدم منه في فناء محطة القاهرة طالبٌ مخبول وأطلق عليه رصاصة ، ولكن عناية الله أحاطت بسعد فنجا من هذا الاعتداء الأثيم وكان جرحه يسيراً .

ولقد كان لهذا الحدث الخطير هزّة استياء عامّ في الشرق كما كان لنجاة الزعيم هزّة فرح وابتهاج أثارت قرائح الكتّاب والشعراء . وقد تسابق الكثيرون لهذا رصدا قيثاراتهم لتسجيل حوادث الشرق بتعليقها في هذا الحدث

فأمّا حافظ فقد هبّ من رقدته الطويلة فنشر في اليوم التالي للحادث سبعة أبيات من الشعر ولكنها كانت كهبّة النائم إذ سرعان ما انحسر عنه فتح عينيه في تثاقل وتراخٍ ويتحدث في تثاؤب وتكاسل وكذلك كانت أبياته عليم من أثر الجهد والإعياء ما عليها فهي هزلة شاحبة ثقيلة قلّ يردّد فيها الشعر الأول من البيت الاول ثلاث مرّات ، فهو يقول :

أحمد الله إذ سعدت لمصر ... قد رمتها يد الخطوب فردّا
أحمد الله إذ سعدت لمصر ... ليس فيها بيوم جلّ حزنا
أحمد الله إذ سلمت لمصر ... ووقاها بلطفه من وقا

ثمّ عاد بعد أيام الى نظم قصيدة في هذه المناسبة تتألق في الحفلة التكريمية التي أقيمت بالاسكندرية في ٢٤ من يوليه من تلك السنة تبهلجاً بنجاة الزعيم وترحيباً له عند عوده للمقاومة بدأها بهذه الأبيات :

الشعب يدعو الله يا زغلولُ أن يستقلَّ على يديك الفيلُ
إن الذي اندسَّ الأثيم لقتله قد كان يحرسه لنا جبريلُ
أيموت سعدٌ قبل أن نحيا به ؟ خطبٌ على أبناء مصر جليلُ
يا سعد إنك أنت أعظم عُدَّةٍ ذُخرت لنا نعلو بها ونصولُ

مثل هذه الأبيات المضمضة المتهافتة التي لا تُحسُّ فيها حرارة ولا أثراً لاستثارة من أصحاب النفس بدأ حافظ قصيدته . ويبدو لنا أن حالة حافظ النفسية لم تكن في خير حالات الاستجابة الشعرية إن لم يكن السكوت الطويل قد ترك أثره في قريحته فلم تنهض رغم الاستثارة القوية التي دفعت الى هذا النظم فقد الشاعر كلَّ مميِّزاته الأولى ، ولذلك جاءت قصيدته الثانية تارةً كقصيدته الأولى ، وغلبت عليه روح الدعابة المتأصلة في نفسه فأراد أن يشير إليه الاصبع بالنكتة حيث لم تتهيأ له إثارة النفوس بالوثبة الشعرية والأبداع الفني فهو يقول مخاطباً الزعيم ، متَّخذاً من لقبه مادة لخلق النكتة :

ولأنت أمضى نبلة نرمي بها فتقذ وأقصد فالنبال قليلُ
النسر يطمع أن يصيد بأرضنا سرب به كيف يصيده (زغلول)!

ثم يمضي على هذا النهج يعطي دروساً بدائية لزعيم سياسي أخذ أهبته لمناوشة أمة متمرِّسة في السياسة والدهاء ... يعطي دروساً لزعيم عُرف بالدهاء والفطنة . . . تلك الدروس التي قد يحسُّ أنه وهو يلقيها على أسماع الناس في محفل هم لا يحتاج أكثر الحاضرين فيه الى معاني بعيدة تكدُّ عقولهم قدر حاجتهم الى ألفاظ قريبة تنفذ الى نفوسهم دون كدٍّ ولا تفكير ، وهو الذي عرف نفسيات الجماهير واكتسب إعجابهم من هذه الناحية بالذات — ناحية البساطة ؛ بينما كان في قصائده : فيه مضى ، من القوة والحرارة ما يساعد على إثارة هذا الإعجاب . ولن يرتفع شعرٌ هدفُ صاحبه تصفيق الجماهير العامة . ولعلَّ أصدق كلمة تصوِّر شعر حافظ في هذه المناسبة بالذات هي تلك الكلمة التي قالها عنه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني حيث يقول « هو — أي حافظ — عندي لسان العصر الذي عاش فيه ، وصوت الشعب الذي أنجبه ، ولم يكن العصر يحتاج الى أرفع من هذه الطبقة ، ولا كان الشعب يقدر أن يحسَّ روحه إلاَّ في مثل شعر حافظ »[1]

(١) مجلة « أبولو » صفحة ١٣٢٨ — العدد الحادي عشر (يوليه سنة ١٩٣٢) من المجلد الاول

فهو يردد آراء وأفكاراً عادية ليس فيها شيء جديد إلاّ أنها نُظمت شعراً ، وأن ناظم هذه الآراء والأفكار حافظٌ الشاعر الكبير سواء أكبّرت هذه القصيدة في قيمتها أم صغرت ... ونحن نؤيد حجتنا هنا بقول الأستاذ الزيات عن حافظ « ... فإذا تهيأ للشعر أو للنثر عمد الى الآراء التي تختلج حينئذٍ في النفوس ، وتستفيض في المجامع ، وتتردد في الصحف فيجمعها في باله ويديرها في خاطره » (١)

أما شوقي فقد هزّ وجدانه هذا الحادث هزّة عنيفة وأثار شاعريته إثارة قوية ، فبدت في قصيدته اللفتات السريعة والومضات الشعرية الخاطفة موزّعة الأضواء في دقّة وتفنن .

هزّ وجدانه هذا الحادث وهو الذي عاد من منفاه الى وطنه آسفاً على ما فاته من المشاركة لهذا الشعب خلال ثورته الكبرى ، وقد ظهر هذا الأسف فيما بعد في قصيدة نظمها في احتفال بيوم ١٣ نوفمبر ، وعنوانها « الحرية الحمراء » وهي وإن نُظمت في السنوات الأخيرة وبعد وفاة سعد خاصةً إلاّ أنها معبّرة عما كان يخالج شعور شوقي منذ عودته من المنفى ومساهمته في كثير من المناسبات التي أقيمت منذ عودته ... وفي قصيدة الحرية يقول:

يومُ البطولة لو شهدتُ نهارَهُ لنظمتُ للأجيال ما لم ينظم
غسلت حقيقتُه وفاء جمالَها بماءِ الخيالِ المبتريّ المُلهَم
لولا عوادي النفي أو عقباته والنفيُ حالٌ من عذابٍ جهنم
لجمعتُ ألوان الحوادث صورةً مثلتُ فيها صورة المستلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه وحكيته متغيظاً لم يكظم ...

وشوقي إذا اهتزت مشاعره ارتفعت شاعريته وحلقت في أجواء خيالٍ مبدع الآن عبقريته — كما يقول الدكتور أبو شادي — « منبعثةً من نفسه خلافاً لحافظ ابراهيم الذي كان مرآةً نقية لشاعر أمته وكان نبوغه من وحي أمته لا من داتيته هو » (٢) فهو الذي يرى الفتنة الطاغية الخالقة للمستولية على نفوس الشباب وقد قادها الهوى الى محاولة

(١) راجع صفحة ١٠٩ من كتاب « في أصول الأدب » للاستاذ احمد حسن الزيات — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥

(٢) من مقال للدكتور احمد زكي أبو شادي في مجلة « أبولو » ص ٢٠٠ العدد الرابع (سبتمبر سنة ١٩٣٢) من المجلد الاول

اغتيال كثير من رجالات هذا البلد في رُقيّ وطيش ليجعلوا من أنفسهم حكّاماً على أعمال الزعماء دون تبصّر ووعي . وفي هؤلاء الرجال الذين امتدّ طيش الشباب اليهم أصدقاءُ أعزاء لشوقي يحمل لهم في نفسه ذكريات طيبةً ، وكان سعدٌ من هؤلاء الأثيرين الى نفسه ... وقد روى الأستاذ حسين شوقي [1] — نجل الشاعر — أن أباه كان يذكر على الدوام عهوداً كريمة كانت بينه وبين سعد باشا ، وكان من أغلى الذكريات عنده ساعة أهداها له سعد باشا حين التقيا بسويسرا وكان سعد يختار هدية الزفاف بأم المصريين فاشترك شوقي في الاختيار ثم اختار سعد ساعة وأهداها لصديقه الشاعر .

وأذكر أني قرأت مرّة كلمة للاستاذ الفنان محمد عبد الوهاب في إحدى المجلات الأسبوعية منذ سنوات يروي فيها أنه كان يسير مع شوقي وإذ بشابين يتقدمان نحو الشاعر الكبير يتفرّسان فيه ثم يرتدّان وهما يتمتمان بألفاظ تبيّن منها أنهما كانا يظنان شوقيًّا فريسةً يترصدانها ثم أذيع إثر ذلك خبر محاولة بعض الشبان الاعتداء على حياة المرحوم ثروت باشا — على ما أذكر — ... فمن هذه الأسباب مجتمعة تحسُّ الهزّة العنيفة التي أثارت شاعرية شوقي واتخذت هذه المناسبة ميداناً لرموزها متفجرة من نفسه .

فهو يعرض الصورة عرضاً فنيًّا رائعاً حين يمثّل قضية الوطن بسفينة تمخر عباب بحر السياسة المتلاطم ، وقد أخذت ركابها نشوة الفرح بنجاة رُبانها من الخطر فهي تسير بين تهليل الركبان ... وقد وفّق الشاعر في جعل موسيقى القصيدة موائمة لموضوعها ، فأنت تحسُّ إذ تستمع اليها تلاطم لجوج مرجول السفينة وتحسُّها تشقّ الأمواج في عزم وأناة ، وتستمع الى فرحة الركبان حين يقول :

شيّا ... وعانق ربّانيها ... وفدّ البشائر ركبانها
وهلّل في جوّ نيلنا وشمّها ... وكبّر في الماء سكّانها
تحوّل عنها الأذى والقذى ... عُباب الخطوب وطوفانها
نجا (نوحها من يد المعتدي ... وصلّ المقانلّ [2] عدوانها

(١) راجع صفحة ٢٣ من كتاب « أبي : شوقي » للاستاذ حسين شوقي — مطبعة مصر سنة ١٩٤٢
(٢) المقانل = جمع مقتل : وهو المصور الذي اذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم

ثم يتناول الحادث بالتصوير الفني المبتدع واللفتات البديعة لاقتباس الموادث القديمة المماثلة للتمثيل والموازنة في دقة ، وهو في هذا التصوير بارع في مزج الألوان مما استطاع به أن يبرز على حافظ ، وبنوع خاص في هـذه القصيدة ، لأن حافظاً — على حدّ قول الدكتور أبي شادي — « كانت تنقصه الوثبات النفرية الأخّاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفني المتجلية في شعر شوقي مهما يكن من استجابة حافظ لعواطف الشعب استجابة فطرية »[1]. ولكن خيال شوقي وما وعاه من عبر التاريخ يسعفانه في هـذا الموقف فهو يقول :

وقّ الأرض شرَّ مقاديره لطيفُ السماء ورحمانُها
ونجّى الكنانةَ من فتنةٍ تهدَّدت النيلَ بيرانها
يسيل على قرن شيطانها عقيق الدماء وعقيانها
فيا سعد جُرحك ساء الرّجا ل ، فلا جُرحت فيك أوطانها
وقتْك العنايةُ بالراحتيـــن وطوّق جيدك إحسانها
منايا أبى الله إذْ ساورتْك فلم يُلقِ نابَيْه ثعبانها
حوتْ دمك الأرض في أنفها زكيًّا كأنك (عثمانها)
ورقمت لآثاره في القميـــص ، كأن قميصك قرآنها
وريعتْ ، كما ريعت الأرض فيك ، نواحي السماء وأعنانها
ولو زُلت غُيِّب (عمرو الأمـود) ، وأخلى المنابر (سحبانها)

وقد اعترض المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي على تعبير « عمرو الأمود » توعدّه من آثار تركية شوقي الباقية في نفسه فهي عنده « إضافات وهمية ... لا محل لها في ذوق البلاغة العربية »[2].

(١) من مقال الدكتور احمد زكي أبو شادي — من ص ... من العدد الرابع (ديسمبر سنة ١٩٣٠) من المجلد الاول من مجلة « أبولو »

(٢) راجع مقال « شوقي » للمرحوم الاستاذ مصطفى صادق الرافعي — ص ٤٠١ من عدد نوفمبر سنة ١٩٣٢ من « الثقافة » جزء ٤ مجلد ٨١

وبعد أن يصوّر شوقي محاولة المعتدي الأثيم ينتقل الى الكلام على النزعة التي استولت على نفوس الشباب فدفعتهم الى الجريمة ، وهنا تتجلى لشوقي تلك الصورة التي أشرنا اليها والتي رواها الفنّان عبد الوهاب فيفزع منها شوقي ويبدو أثر هذا الفزع في هذه الأبيات :

أرى مصر يلهو بحدّ الظبا ح ويلعب بالنار وُلدانها
وراح بغير مجال العقو ل يجيل السياسةَ غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلا دُ ، ولا همّةُ القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضي دولةٌ وتقبلَ أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا د ، وبالسلم تشتدُّ أركانها

وهنا تظهر فيه روح الحكيم وتنثال على لسانه الحكمة التي تغلب على كثير من قصائده كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، وينتهي بعد التقريع واللوم الى أن يقول :

لقد عبثتْ بالنِّطاق الحُدا ةُ وقام عن الإبل رُعيانها
إلى الخُلْق أنظرُ فيما أقو ل وتأخذ نفسيَ أشجانها

ثم يخاطب سعداً ليذكّره بالأمانة التي حملها فلا يقول كما قال حافظ :

جمعوا عقائر الدهاء وركّبوا ما ركّبوه وعندك التحليلُ
يا سعد أنت زعيمنا ووكيلنا وعليك عند مليكنا التعويلُ
فادفعْ وناضلْ عن مطالب أمةٍ يا سعد أنت أمامها مسئولُ
النيل منبعهُ لنا ومصبُّهُ ما إن له عن أرضها تحويلُ

ولكنه يقول في عرض فنّي جميل وتذكير شعري رائع يبيّن فيه حُجّة المصريين أمام دعوى الانجليز كما يجب أن يدلي بها السياسي :

وباه سعد ، أنت أمين البلا د وقد امتلأتْ منك أيمانها
ولن ترتضي أن تُقلّدَ القنا ةُ ويُستَرّ من مصر سودانها
وحجّتنا فيهما كالصبا ح وليس بمخفيك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخُلجانها

وما هو عالة ولكنه وريدُ الحياة وشريانها
تسمّمُ مصرَ بنابيعهِ كما تسمم العينَ إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبُهُ عشيرة مصر وجيرانها
وأما الشريك فميلاتُه هي الشركات وأوطانها
وحربٌ مضت نحن أوزارها[1] وخيلٌ خلت نحن فرسانها

* * *

هذه قصيدة شوقي في حادث الاعتداء على سعد عرضنا منها نماذج بعد أن عرضنا شيئاً من قصيدتي حافظ ، ومن هذا العرض يتجلى تأخر حافظ في هذه المناسبة تأخراً عجيباً لا ندري تعليله الا أن نذهب مع الاستاذ احمد أمين بك في أن « خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة ، فأما فرح بالطبيعة ، وفرح بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث من عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال في شعره » ... ويرجع الاستاذ أحمد أمين بك ذلك الى « أن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجي ، كان مظهره الخارجي ضحوكاً مرحاً ... ولكنه في أعماق نفسه حزين ... وهذا ما يعلل أيضاً ضعف الفكاهة في شعره »[2]

فإحساس شوقي في هذه القصيدة إحساسٌ صادق تعبر عنه هذه الموسيقى النابضة الرائعة التي وُفق الى نظم قصيدته منها ، وهي تسابق الألفاظ في التعبير عن فرحة الشاعر في حين تلمس ضعف الموسيقى وفتورها كما تلمس فتور الألفاظ وهزال المعاني بل مواتها في قصيدة حافظ الأولى ثم تعثرها حين أراد أن يبعث فيها طول النفس في قصيدته الثانية . هذا ، الى أنك لا تجد في قصيدة شوقي إجهاداً ولا تحسُّ فيها إعناتاً بل تحسُّ فيها يسراً هو صدق الفن ، وجمالاً هو روعته .

حسن كامل الصيرفي

(١) الاوزار = جمع وزر : وهو السلاح
(٢) راجع المقدمة التي كتبها الاستاذ احمد أمين بك لديوان حافظ ابراهيم — ص ٢٨ طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٧